العلوم الإنسانية —— عدد 47 جوان2017،المجلد ب، ص. ص 301-315 ——

السوداوية : المصطلح والمفهوم

حســـان زرمــان
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

ملخص:
السوداوية مصطلح قديم، ولد في أحضان الطب، وانتقل إلى الفلسفة، فأعطاه أرسطو دفعة قوية، حين ربط بين السوداوية، وتفوق أصحابها – المصابين بها – في الفنون، والسياسة، ومجالات الحياة.
ومن الطب والفلسفة، هاجر المصطلح إلى بقية العلوم، والمعارف في العصر الحديث، وقد تلقاه الأدب بدءا من القرن السابع عشر، وعرف بعض الذيوع، والشهرة عند الشعراء والأدباء، وبسبب ارتباطه بظاهرة متطرفة من الحزن، والحداد، يحاصرها الديمومة، ويحفها الانتحار؛ هيمن على المصطلح المعارف ذات الصلة الوطيدة بالصحة النفسية، والجسمية، والاستقامة في السلوك، وكان لها النصيب الأوفر في بلورة المفهوم، وتشكيل مكوناته، وخصائصه.
ولعل التحليل النفسي أحسن هذه العلوم، وأوفرها حظا في الاستئثار بذلك؛ لما بذله رواده، وعلى رأسهم فرويد، في دراسة السوداوية، وتحليل جوانبها العصابية، وانعكاساتها النفسية، والسلوكية.
ومن التحليل النفسي، يحاول الأدب أن يجد مدخلا مناسبا، يؤسس من ورائه مفهومه الخاص بالسوداوية، وكيفية اقترانها بالكتابة، والتخييل، حيث يمكن للغة بطاقاتها الترميزية أن تعوض الموضوع المفقود الذي أدى إلى الحزن الدائم، عندما ينجح السوداوي في التعايش مع حالته، وترويضها بآليات التصعيد – أو التسامي– وطرائق تجسيده في الإبداع الأدبي بأجناسه، وضروبه المتنوعة.
الكلمات المفتاحية: السوداوية، نظرية الأخلاط، الفقد، الحداد، العصاب، التصعيد، الكتابة، التخييل

Abstract:
Melancholia is an ancient term that was born in medicine, before moving to philosophy, where Aristotle had given it a strong impetus when he established a link between it and the high degrees of excellence that those who suffer from it achieve in art, politics, and the other realms of life. Then, this term migrated modern times from medicine and philosophy to the rest of sciences and fields of knowledge.
It was received by literature starting from the seventeenth century, and enjoyed a widespread use and fame among poets and literary figures due to its association with an extreme phenomenon of sadness and grief surrounded by perpetuation and the chronic threat of the danger of suicide; this term was dominated by knowledge tightly linked to mental and physical health as well as rectitude in conduct and ,consequently, contributed to the crystallization of the concept ,the formation of its constituents ,and its characteristics.
Psychoanalysis is perhaps the luckiest of the these sciences in terms of the monopolization of this concept as a result of the huge efforts dispensed by its pioneers led by Freud in the study of melancholia and the analysis of its neurotic aspects along with its behavioral and psychological implications.
Through psychoanalysis, literature has attempted to find an access that enables it to establish its specific conception of melancholia and the way it is related to writing and fiction. In this regard, language has been perceived as an effective means capable through its symbolization power to replace the lost topic which led to chronic depression .Thus, language enables the melancholic to succeed in cohabitating with his state and taming it with the tools of sublimation and the methods of its realization in different genres and types of literary creativity.

مقدّمة:

الميلانخوليا، أو السوداوية مصطلح طبي قديم ، يمتد نسبه عبر الأزمنة القديمة إلى الحضارة الإغريقية ، إذ ابتكره اليونان، وأطلقوه على بعض الأعراض المرضية، وعن صفوة أطبائهم، وفلاسفتهم انتشر في البلاد، وانتقل إلى غيرها من الأقطار، والشعوب الأخرى، بعدما قرر أبقراط تحرير الطب من ربقة الملوك، والأمراء، وتحويله من صناعة للخاصة، والنخبة إلى علم قابل للنقل، يشمل نفعه العامة من

© جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، الجزائر2017

الناس، والأغراب من الأمم المجاورة لليونان ، وكان عذر أبقراط في إخراج هذا العلم خوفه من انقراضه؛ لأنه كان حكرا على آل أسقلميوس (Asclepius)[1] ، وبذهابهم يصبح عرضة للضياع، والزوال، فكان أبقراط يعلمه لمريده، ويأخذ العهد عليه ـ قسم أبقراط ـ بالتزام الوفاء به ، والحفاظ على شرفه ، والاعتدال في ممارسته[2].

وقد تلقفت الحضارة العربية الإسلامية هذا المصطلح ـ السوداء أو السوداوية ـ واشتغل به أطباؤها، وفلاسفتها في المشرق، والمغرب، والأندلس، ثم تطور المصطلح في عصر النهضة الأوروبية، وعرف مفاهيم نوعية في الفلسفة، وعلم النفس، والأدب.

والميلانخوليا ـ أو السوداء ـ في عرف الطب القديم واحدة من بين الأمزجة، أو الأخلاط (humeurs) الأربعة ولفظة (Mélancolie) يونانية الأصل، وهي مركبة، لأنها منحوتة من لفظتين مختلفتين، تتكاملان معا في تشكيل دلالتها : (melas أو melanos): ومعناها الأسود، أو السوداء، وهي لفظة تنتمي بدورها إلى عائلة (Melanie) الدلالية التي تضم مجموعة من المشتقات [3]، ولفظة: (kholé)، ومعناها المرارة. [4]

والتضافر بين اللفظين يعطي دلالة العضو المفرز، أو الغدة المسؤولة عن إنتاج، وتخزين خليط السوداء، وتحريره في الجهاز الهضمي، مثلما قد يشير إلى الخليط نفسه، كما هو معروف في تقدير الدلالة المجازية للحاليّة .

وبحسب المستوى العلمي الذي بلغه القدامى في عصرهم، فقد ميزوا بين خلط الصفراء، وخلط السوداء، فالأول حار، تفرزه المرارة ، والثاني بارد مفرغته الطحال، وللخلطين صفة مشتركة، فكل منهما يابس على خلاف بقية الأخلاط. [5]

والخلط في عرف أطباء القرن العاشر الهجري، ومن سبقهم " هو جسم رطب سيّال يستحيل إليه الغذاء أوّلاً "[6]، وتختلف الأخلاط، وتتنوع باختلاف خصائصها النوعية، ورطوبتها، وباعتماد هذه الأخيرة، تتفرع الأخلاط إلى ثمانية أقسام، الأربعة الأولى منها ذات منشأ أصلي، وهي:

- رطوبة نظيفة تمثل بقية من المني الأصلي.
- رطوبة عضوية تتخلل الأعضاء، وتدفع يَبسها الأصلي.
- رطوبة عرقية تتولد من الغذاء الطارئ.
- رطوبة أخرى تتولد أيضا من الأصلي.

أما الأربعة الأخيرة ، وهي المعروفة غالبا بالأخلاط، إذا أطلقت التّسمية ، فهي التي يُعتقد أنها ناتجة عن ما يتناول من الأطعمة، والأشربة، وأفضلها الدم، وأدناها السوداء، وترتيبها على النحو:

الدم: أفضل الأخلاط؛ لأنه يجدّد المتحلل، ويضمن النّمو، ويقدم مظهرا لونيا على الصحة.

البلغم: قريب من الدم، ينمّي الأعضاء، وله قابلية التحول إلى الدم عند الحاجة، والدم، والبلغم ليس لهما مفرغة ـ غدة خاصة ـ؛ لأنهما يسريان في أعضاء الجسم باستمرار.

الصفراء: انفصال القليل منها مفيد، واللطيف من هذا الخلط ضروري في مساعدة الدم على التغذية، والتلطيف، ومصدره المرارة.

السّوداء: قدرتها على الرسوب تتفوق على البلغم، والصفراء؛ لذلك يفيد قسم منها في دعم الدم، وتقويته على التغذية، والتغليظ، والقسم الماكث في الطحال يوقظ الرغبة، والشهوة إذا وُجّه إلى المعدة.

وإذا كان الدم يهيمن على عمليات التغذية، فإن الاعتقاد القديم يقوي مشاركة الأخلاط، والأمزجة فيها، وذلك بنسب يحددها النمط الغذائي المتبع.[7]

وجدير بالذكر أن الأطباء الأوائل، العارفين بالطبيعيات، يميزون بين الأخلاط والأمزجة، فالخلط كما ذكر ـ في تقديرهم ـ ناجم عن الغذاء، ومكوناته المتنوعة، أما المزاج فعلى كونه محصلة تركيب هو الآخر غير أن مكوناته ليست غذائية؛ لأنه تشكّل من تمازج الأركان، وهي الأجسام اللطيفة البسيطة الأولية للمركبات، وتعدادها أربعة: النار، الهواء، الماء، والتراب، فيكون المزاج " كيفية متشابهة الأجزاء حصلت من تفاعل الأربعة بحيث كسر كلٌّ سَورة الآخر بلا غلبة."[8]

تمثل الأركان، والأمزجة، والأخلاط، والأعضاء، والأرواح، والقوى، والأفعال جملة الأمور الطبيعية السبعة التي أجمع عليها علماء الطب القديم، وأرباب صناعته.(9)

ومن صفات الأركان الفيزيائية، استمد الطب القديم خصائص المركّبات، والأخلاط، فالنار رمز الحرارة، والهواء رمز البرودة، والماء مثال الرطوبة، والتراب نموذج اليُبوسة، وقد أسقطت هذه الصفات على الأخلاط، واستعملت في التعبير عن مميزاتها، وتغير صفاتها في الأحوال الثلاثة: الصحة، المرض، والحالة المتوسطة بينهما، فكان الدم، والبلغم يتقاسمان صفة الرطوبة، ويتباعدان في كون الأوّل حارّاً، والثاني باردا، وكان خلط الصفراء، والسوداء يتشاطران صفة اليبوسة، ويتباينان في ميل الصفراء إلى الحرارة، وانحياز السوداء إلى البرودة، وبواسطة هذه الخصائص درس الأوائل أوضاع الإنسان النفسية، وحالات بدنه بين الصحة، والمرض، وأدركوا أهمية الأركان ـ العناصر الأربعة ـ والأمزجة، والأخلاط في إقامة توازنات، وتمازجات، وتركيبات نوعية، تؤدي إلى هذه الحالة، أو تلك من سلامة البدن، أو اعتلاله، وذلك من خلال التأثير، والتأثر الحاصلَين من التفاعل بين الأخلاط، والأمزجة، والكيفيات المتولدة عنهما.(10)

وقد انتبه الأطباء القدامى إلى التمييز بين الأفعال الغريزية اللاشعورية، والأفعال الإرادية الواعية، فجعلوا " الفعل بلا شعور مع اختصاص التصريف جنسا مستقلا سموه قوة طبيعية، وبالشعور والتعلق بالدماغ سموه شهوة نفسية، وما بينهما حيوانية، فلا جرم اضطروا إلى تثليث القسمة و الثالثة النفسية: ومادتها ما ينبعث عن القلب صاعدا للدماغ وعنه كمالها ، وهي جنس لما مُيَز به النوع الإنساني في جنسه. " (11)

وقد قسموا القوة النفسية إلى أقسام:

أ ـ مدركة للكليات: سموها النفس الناطقة كالعقل.

ب ـ مدركة للجزئيات: وهي قسمان أيضا: ظاهرية يمثلها الحواس الخمس، وباطنية تتفرع بدورها إلى خمسة أقسام، أولها الحس المشترك، وثانيها الخيال، وثالثها الواهمة ـ إدراك المعاني الساذجة ـ ورابعها الحافظة ـ الذاكرة ـ وخامسها المتصرفة؛ لإدراك الصور، والمعاني، والتصرف فيها بالتحليل، والتركيب، ولكلٍّ من هذه القوى الفرعية موضع تشريحي، يوجد على الدماغ.

ج ـ محركة: تولّد الشهوة، والغضب.

د ـ فاعلة: تبعث على القبض، والبسط.

ويعتقد الأطباء في ذلك العهد أن تأرجح الإنسان بين الصحة والمرض مقترن بجملة من الأسباب منها المشترك، ومنها العام، والخاص، فإلى جانب الضروريات: من هواء، وماء، ونوم، ويقظة، ومأكل، ومشرب ، وهي حاجات تشترك فيها الكائنات الحية ، تكتسي الأحداث النفسية ـ كأسباب خاصة بالبشر ـ قيمة نوعية، لما لها من أثر ظاهري، أو باطني في استجابة الفرد، وتفاعله مع غيره في نشاطات الحياة، ومجالاتها .

وهم يعتقدون أيضا، أن النشاطات النفسية مادتها الحرارة، يثيرها ما يحرك النفس من عوامل طارئة، تهتز لها، وتنفعل بها، ويظهر أثرها على الجسم في أحوال الصحة، والمرض، وما بينهما.

وتبعا لتقديرهم الأعراض، والظواهر الانفعالية: الجلية، أو الباطنية، فإن حركية العامل المؤثر في توجيه الاستجابة، وانعكاس صورها خارج الجسم، أو داخله، هي العلامة الفارقة في تصنيف الحالة الشعورية النفسية، والاهتداء إلى معرفة طبيعتها، ومجالها، ودرجتها الانفعالية؛ لذلك فإن " الفاعل قد يحرك إلى خارجٍ فقط فيكون نحو الفرح إن كان التحريك دفعة واحدة، وإلا فالخجل. وإلى داخل دفعةً كالغم، وتدريجا كالخوف، أو إليهما دفعةً كالغضب، أو تدريجا كالعشق."(12)

وفي بحث له حول أسباب الفرح، يستعرض فخر الدين الرازي إجماع الحكماء، والأطباء على نسبة الانفعالات النفسية من فرح، وغم، وخوف، وغضب إلى الروح الكامن في القلب، والتأكيد على أن مستوى الانفعال لا يخضع إلى الفاعل ـ العامل ـ المؤثر فحسب، بل يتناسب طردا مع الاستعداد النفسي للشخص المنفعل: يشتد الانفعال بزيادة الاستعداد، ويضعف بضعفه.

والاستعداد خلاف القوة، إذ هي قدرة على فعل الضدين: كل إنسان قادر على الفرح قدرته على الحزن، أما الاستعداد فميل بالقوة إلى أحد الضدين دون الآخر، أي وجود استعداد للفرح فقط، أو توفر تهيئة نفسية للوقوع في الحزن، أو غيره من الأعراض، والحالات النفسية... [13]

ويُعزى الاستعداد النفسي ـ في تمكنه واستحكامه ـ إلى تكرار الانفعال، وتواتره في ظهوره المفضي منطقيا إلى التثبيت؛ لأن " تكرّر الفرح يُعِدُّ النفس للفرح، وتكرّر الغم يُعِد النفس للغم لأن كل صفة ذات ضد إذا حدثت فإن القوة على تلك الصفة تشتد فتصير استعدادا. " [14]

وعلى هذا النحو، فهم أصحاب الطب القديم النشاطات النفسية، وميزوا بين الأهواء، والانفعالات في كيفية نشوئها، وحدّة مستوياتها، ومواطن التحكم فيها على الدماغ، وبغض النظر عن الأشياء، والمفاهيم التي خالفهم فيها الطب الحديث، فإن ما يهم في أبحاثهم هو تلك القواسم المشتركة التي أدركوها بالفطرة، والتجربة، وبُعد النظر، فأضحت غير قابلة للتجاوز، لا يعتريها إلا التجديد، والإثراء.

ومن ذلك حكمهم بأن النشاطات النفسية حركات باطنية ـ قلبية ـ لها ارتدادات داخلية، وخارجية، وأن الأهواء حالات نفسية طبيعية طالما لم تخرج عن حد الاعتدال، فإذا أُفرط فيها بسبب عامل مُحفز، وتكرار للحالة، ترسخت، وصارت استعدادات، وميولا للوقوع فيها... وهكذا ميّز الحكماء الفرح، والحزن الطبيعيين من نظيريهما المرضيين، فالفرح إلى أقصى حدوده المألوفة، يقابله شدة الفرح التي تتكرر من مداومة استهلاك الخمر، وإدمانها، والحزن الطبيعي المؤقت، الناجم عن فقد عزيز على النفس، أو إخفاق في عمل، أو خيبة أمل في علاقة ما، يقابله الحزن الدائم المفرط بتكراره، واستقراره المطبق على النفس، وهو ما أطلق عليه القدامى تسمية الغم السوداوي.

وبالنظر إلى ما سبق، فالسّوداوي هو كل شخص يعاني حالة من المرض النفسي المزمن، ميزتها الحزن، والغم الدائم، مما يجعلها مناقضة لحالة الانتشاء غير الطبيعي، وهي حالة كل شخص يواظب على استهلاك المسكرات ـ أو المخدرات ـ للإبقاء على لذته، وسروره.

إن السوداوية، والإدمان على المسكر، أو المخدر، مرضان نفسيان جسميان لكل منهما خصيصة لافتة، فالسوداوية عمدتها العكوف على الحزن، والوقوع في أسره، والإدمان ركيزته دوام الاستهلاك، والإفراط فيه غالبا؛ لاستجلاب الفرح، ودفع الغم المناقض له.

ولكلٍّ من الفرح، والغم أسباب ثلاثة، إذا حضر أحدها، أو جميعها عند الأول، انتفى ما يناظر ذلك عند الثاني، والعكس صحيح، وهذه الأسباب هي:

1. مدى توازن الروح في الكم، والكيف: والسوداوي هنا غليظ الروح، شديد ظلمتها مقابل نورانيتها، ولطافتها عند شارب الخمر.
2. أسباب الحياة الخارجية: وهي عوامل تنشأ من تفاعل الإنسان مع الناس، والطبيعة، منها القوي، ومنها الضعيف، منها المعروف، وغير المعروف الذي افتقد المرء الشعور به من كثرة تداوله، والتعود عليه، والسوداوي في تعامله يكرّس أسباب الغم من خلال الانشغال بها، وديمومة التفكير فيها، ومن ذلك استحضار ذكريات الأخطار الماضية، والآلام القديمة، ومداومة التفكير في الأحقاد، ورواسب الغيظ الجارية في المعاملات، وانشغال البال بهواجس الخوف من المستقبل، والتوجس من الموت، والرهبة من الفشل، وغيره من المنغصات.
3. تكرار حالات الفرح، أو الحزن يورث النفس استعدادا لقبول ذلك، ويعلل ثبات الاستعداد من جهاتٍ ثلاثٍ: أولاها استقراء الظواهر الفيزيائية، ومنها تعرض الأجسام للحرارة، والبرودة، والتكاثف، فكلما تواتر ذلك، استعدت الجسام بسرعة أكبر، وكذلك الشأن في القوى النفسية، فإن كثرة تردد أفعالها، وانفعالاتها يُهيّئ لها مَلكة قوية شبيهة باكتساب الأخلاق، وثانيتها التضاد بين القوى، والحالات النفسية، فوجود إحداهما ينفي وجود ما يناقضها؛ لأن لكل فعل انفعال مناسب له، معارض لضده، فإذا تمكن هذا الانفعال بتكرره مرارا، يصير استعدادا، ويطغى على ضده منتقصا من فرص استعداده، فإذا تكاثرت وقائع الفرح، وازداد حضورها، مالت النفس سريعا إلى المرح، والحبور، وابتعدت عن المنغصات، وكل ما من شأنه أن يجرها إلى الحزن، والأسى، وثالثتها وضع القوة الطبيعية، والحالة الروحية السائدة، فالفرح

يلزمه تعاظم قوة الجسم الطبيعية، وتخلخل الروح، وانبساطها خلافا للحزن الذي يكون لازمه ضعف القوة الطبيعية، وانقباض الروح، واحتقانها، وقد اقترن الفرح بالحرارة، والرطوبة؛ لسريان الدم في أعضاء الجسم البارزة تناغما مع ما يسر النفس، أما الحزن فعرضاه البرد، واليبس؛ لما يلاقيه البدن من الانقباض، [15]

، يخضع لتأثير حزن مطبق دائم، وعرف المرض الذي يعاني منه بالسوداوية نسبة إلى السوداء، فهي الخلط المسؤول عن البرودة، واليبس المصاحبين لنوبات الحزن، وما يتضمنه من انقباض، وتقلص، حيث يعتقد الأطباء القدامى أن ارتفاع مستويات السوداء، وطغيانها على بقية الأخلاط ـ وبخاصة الدم منها لما يوفره من حرارة غريزية، ومظهر طبيعي دال على الصحة، والعافية ـ يقود إلى السوداوية، إذ السوداء أدنى الأخلاط، وأقلها شأنا، وانحراف معدلاتها مؤشر مرتبط بانحطاط البدن، وسقمه؛ لأن زيادتها مدعاة لانتشار البرد، واليبس اللذين يمثلان مزاجا لصيقا بحالة القضافة، وهي مرض يُحوّل الجسم إلى بنية مورفولوجية ضعيفة، ميزتها قلة اللحم، والعضل، والوصف نفسه ينطبق على مرحلة الكهولة، حيث يسيطر فيها مزاج البرد، واليبس ـ بدءا من السّتّين ـ وتتراجع طاقات البدن، وقواه بشكل خفي غير ملاحظ.[16]

وربما كان للانحطاط النفسي الناجم عن ديمومة الحزن، والغم دور بارز، يعضد الانحطاط العضوي للجسم في تفسير تسمية السوداوي، وإقرارها، فرمزية السواد إلى الحزن، والحداد لا تخفى على أحد، ودلالة الظلام على الخوف، والتوحش مألوفة عند العام، والخاص، فالسوداوي " يكون قوي التّخيل لأن الروح الذي في البطن الأوسط من الدماغ تخف حركته لجفافه ولما تفيده السوداء من اليبس ، ثم إنه لقوة تخيله ينفذ تخيله في فكرة موحشة بإيراده الأشباح والمحاكيات للسبب العام الموحش فتكون كأنها واقعة فيه فلا يزال في خوف وغم." [17]

ويمكن استخلاص خصائص السوداوية، في الطب العربي الإسلامي القديم، من خلال موازنة أقامها فخر الدين الرازي بين فرح شارب الخمر، وغم السوداوي، حيث أقر التضاد بين حالتيهما، وحرص على استقصاء مميزات شارب الخمر، وحصرها في أمور ثلاثة، يجوز استخدامها، والقياس عليها في استنتاج سمات السوداوي المقابلة لها:

1) نقص جوهر الروح في الكم، والكيف مقابل استكماله عند شارب الخمر.
2) سيطرة الأفكار العقلية المولدة للغم على السوداوي أمام تملص شارب الخمر منها، وتخلصه من مضايقاتها.
3) انصراف السوداوي عن العالم الخارجي، وعدم اشتغال فكره بالأشياء، والمحسوسات التي تجلب اللذة، وانغلاقه على أسباب الهم، والأسى، يرتهن فيها قدراته، وطاقاته الفكرية، الشيء الذي يخالفه فيه شارب الخمر، فتعمل هذه الأخيرة على إعاقة حركاته الفكرية، وإبطاء انشغالاته بالصعاب، والمشاكل، ومن ثمة تخفيف ضغط العقل، ووطأته على النفس، مما يجعلها تنشغل بمدركات الحواس الآنية، وأسباب اللذة القريبة، فتقبل على المتع مقيمة على الفرح، والحبور.[18]

السَّوداوية : من الإصطلاح الطبي إلى الإصطلاحات الأخرى

ينسب الفضل في انبثاق نظرية العناصر الأربعة ـ أو الأركان كما يسميها العرب ـ المكونة للطبيعة: الماء، الهواء، النار، والتراب ـ إلى الفيلسوف اليوناني " أُمبيدوكل" (Empédocle) - حوالي 490 - 430 ق.م ـ وهي نظرية ما زالت صالحة، ومتبناة في عصر الكيمياء الحديثة، وفيها يرجع كل تفاعل بين العناصر الطبيعية المذكورة، وتوابعها إلى مبدأي الحب، والكراهية :

كل عمليات الاتحاد، والتركيب بين هذه العناصر أساسها الحب كخاصة تآلف، وانجذاب، في حين ينهض كل انقسام، أو تجزئة بينها على الكراهية التي تكون أساس التنافر، والتباعد بين المواد، والأجسام، والظواهر في الطبيعة.[19]

استلهم أبقراط (Hippocrate) أفكار "أمبيدوكل"، وتصوراته، واستوحى منها نظرية جديدة، عرفت بنظرية الأمزجة/الأخلاط (Théorie des humeur)، وهي نظرية في الطب، طورها لاحقا

خلفه كلود غاليان (Claude Galien) - 131 - 201 م - وزاد عليها، ثم ورثها العرب عندما ترجموا كتب اليونان في الطب، والرياضيات، والمنطق، والفلك في العصر العباسي.
ونظرية الأخلاط هذه، تنسب إلى الجسم العناصر الأربعة السابقة، وتضيف إليها أربعة عناصر أخرى من مادة سائلة، هي التي تدعى الأخلاط الأساسية: الدم (Sang)، والبلغم (Pituite)، والصفراء (Bile)، والسوداء (Mélancolie :Bile noire ou Atrabile).
وبحسب هذه النظرية، تكون الحالة الصحية للجسم، والسّواء النفسي موافقين للتوازن الجيّد بين الأخلاط الأساسية، أما الحالات المرضية فتُفسر بفساد أحد الأخلاط، أو انعدام التوازن بينها، واختلال بعض نسبها، ومن اضطراب الأمزجة أُثرت العبارة الجاهزة: التواجد في مزاج سيئ : Etre de mauvaise humeur، ولمّا كانت الفلسفة أما للعلوم في العهد اليوناني، فقد نشأ الطب مجاورا لها، وتطورت مسائله في أحضانها، وتفرعت أفنانه تحت رعايتها؛ لذلك انتقلت أهم مصطلحاته - ومنها السوداوية - إلى مباحث الفلاسفة، والمفكرين في وقت مبكر، ومن هذين العلمين هاجرت عبر الزمن، والمكان متنقلة بين الثقافات، والحقول المعرفية التي احتاجت إلى اقتراضها، وضمّها إلى مدوناتها الاصطلاحية.
وقد تقلب مصطلح السوداوية بين عدة اختصاصات معرفية في الماضي، والحاضر، منها الطب، والفلسفة - بوصفهما الحاضنة الأصلية للمصطلح - ومنها علم النفس، والتحليل النفسي، والأدب، فأضحت هذه العلوم جميعا تتجاذبه، وتتقاسمه مدرجة إياه في مخصّصاتها الاصطلاحية، يحرص كلٌّ منها على استخلاص مفهومه النوعي المناسب لطبيعة العلم.
ففي الطب العربي الإسلامي الذي ورث معارف اليونان، والرومان، بعدما قام العباسيون بترجمتها، ترد لفظة السوداء للدلالة على نوع من الأخلاط، " وهي قسمان: طبيعية ويسميها جالينوس خلطا أسود، وهي عكر الدم الطبيعي، وغير الطبيعية وهي كل خلط محترق حتى السوداء المحترقة في نفسها، ويسمى بالمُرّة السوداء والسوداء الاحتراقية والسوداء المحترقة كذا في شرح القانونجه والموجز."[20]
وفي الفلسفة، أُشبع مصطلح السوداوية بالعديد من الأفكار، والمعاني، وتشرّب مفهومه القاعدي الدال على الانحراف عن الطبيعة السوية أبعادا فلسفية، أسبغت عليه أدوارا اجتماعية، وقيما وظيفية، وفنية، جعلته قرينا للدلالة على الفرادة، والتفوق، فقد استقرأ أرسطو أوضاع الناس، وسلوكاتهم، وانتهى به الأمر إلى الربط - بطريقة استلزامية تعميمية - بين السوداوية، والنبوغ، فوجود حالة سوداوية عند أحدهم مؤشر، يقود إلى تميزه في أحد المجالات - وهكذا وحسب تقدير أرسطو - " فإن كل الأشخاص البارزين المتميزين في الفلسفة، والسياسة، والشعر، أو غيره من الفنون، يبدون في مظاهرهم الانفعالية، والسلوكية سوداويين."[21]
وفي العصر الحديث، اكتنز مصطلح السوداوية بمفاهيم ومعاني جديدة، ومن ذلك المفهوم الذي استقر عليه عند الفلاسفة الرومانسيين الألمان - من أمثال شيلنج (Sheling)، و شليجل (Schlegel) - فأصبح يشير إلى الإحساس الحقيقي الأصيل بالوجود الإنساني، وما يمثله من رغبة، وتعبير عن التّطلع إلى المطلق اللامتناهي، والتّوق إلى اللامحدود، [22] وما يتخلل هذا الشعور من معايشة للكآبة، والحزن، الناجمين عن القصور في تحقيق الغاية، وبقاء الأمل الملحَ على النفس، يؤرق جوانح، ويثيرها للمضي قُدما في سبيل إنجاز مرادها.
وفي علم النفس، يرتبط مصطلح السوداوية بحالة مرضية، من مؤشراتها الكآبة، والهبوط النفسي، والعصبي، وهي تمسّ فئة من المجتمع، تقدر نسبتها بـ 1 % ، الأمر الذي يجعل الوضع مألوفا، ومعتادا.
وفي مثل هذه الحالة المرضية، يحس المصاب بالدناءة، وعدم الأهلية، وافتقاد الجدارة لأشكال التقدير، والاحترام، بل إنه يرى نفسه مسؤولا عن الخطايا، والذنوب كلها في حياته، فيحكم عليها بالامتثال لأقسى أنواع العذاب، واستحقاق الخضوع لأقصى قيم العقاب، ودرجاته.
وفي هذا الاتجاه، يعرف نوربار سيلامي (Norbert Sillamy) السوداوية بأنها وضع مرضي، ميزته الأساسية الغم، وفقد الرغبة في الحياة، وذلك بالإعراض عن النشاطات الاجتماعية، والتواصلية، ومن أعراض السوداوية أيضا، أن يساور المريض إحساس غريب، يتباطأ فيه الزمن المعيش إلى حد بعيد، يبدو فيه متجمدا، بفعل ركود الذهن، وتثبيط عمليات التفكير، وآلياته، ويلاحظ أن المصاب بالسوداوية

يبدو متعبا خائر القوى، ويظل حبيس ألمه المعنوي، يجترّ أفكارا سلبية عن شعوره بعدم تقديره لنفسه، وهوانه على الناس، وإحساسه الغامر بالذنب، وميله إلى جلد الذات، ومعاقبتها باللوم، والسخط.
والجدير بالذكر أن مثل هذه المشاعر المرضية، قد يحدث أن تطرأ على الإنسان بلا سبب ظاهر، مثلما يمكن أن تترتب في الحدوث عقب حزن شديد، أو حداد (Deuil).[23]

السوداوية في التحليل النفسي والأدب

أما في التحليل النفسي، فإن السوداوية تعد ضربا من العصاب (Névrose)، يندرج ضمن الأعصبة التحولية، بحسب تصنيف فرويد لها " ويظهر ذلك من خلال التمييز الذي أقامه بين الآليات الثلاث التي تكون صرح العصاب: انقلاب المشاعر الوجدانية (الهستيريا)، ونقلها (الوساوس) وتحوّلها (عصاب القلق ، السوداوية)".[24]
وفي السوداوية ـ كما في الأعصبة التحولية التي يحب فرويد المقابلة بينها، وبين أعصبة الصدمات، وأعصبة الحرب على أساس الخطر المهدد للأنا، إن كان داخليا، أو خارجيا ـ " فإن العدو الذي يدافع الأنا عن ذاته ضده هو في الحقيقة الليبيدو، الذي تبدو مطالبه للأنا خطرا."[25]
وفي مقابل ذلك يتجلى الخطر الخارجي ـ غالبا ـ متربصا بالأنا، يهدد كيانه في أعصبة الحرب، ماثلا في إمكانية التعرض للهلاك، والموت، أو في هيئة أنا طفيليّ محارب حديث التشكل، يجازف بحياة الأنا المسالم القديم، ويغامر بها صوب الأخطار منذرا بالقضاء عليها، والأمر نفسه يمكن أن يقال عن أعصبة الصدمات ـ باستثناء الصراع في الأنا ـ التي تقع في أوقات السلم بعد تجارب مؤلمة، أو حوادث مفزعة، شديدة الأثر على النفس.[26]
وقد توصف الدراسة التي ساقها فرويد حول الحداد والسوداوية (1915) ـ ضمن أبحاثه الداعمة؛ لإثبات النظرية الليبيدية، أو نظرية الأسباب الجنسية للأعصبة ـ بأنها رائدة في سياق التعريف بالسوداوية، وإبراز خصائصها، والتنظير لآليات تشكلها، حتى غدت نظرية في الحزن، ومرتكزا يرجع إليه أصحاب التحليل النفسي؛ للبناء عليه في دراساتهم، تلك هي حال جوليا كريستيفا (Julia Kristeva)، وهي تتلمّس مسالك العلاقة الناشئة بين الحزن الذي يردفه الفقد، والكتابة بوصفها إشارات رمزية لها إمكانية استرجاع المفقود بالنفي؛ لذلك فإن عودة كريستيفا تنظر " مثل غيرها من أنصار التحليل النفسي في العقد الأخير، إلى نظرية فرويد في الحزن، في حالتها في امتحان السّبل التي يمكن للفقدان، الفعلي والرمزي، يمكن في الحقيقة أن يكون متبدّيا باعتباره أسى متنقلا، دافعا الذات الحزينة نحو الدلالة."[27]
وقد كان متعذرا على فرويد الإحاطة المباشرة بمفهوم السوداوية بالنظر إلى اختلاف حالاتها وأعراضها وأسبابها " فحتى في علم الطب العقلي الوصفي لا يزال تعريف مرض السوداوية غير مؤكد؛ إذ إنه يتخذ أشكالا كلينيكية متعددة (بعضها يوحي بتأثيرات جسمية أكثر منها نفسية المنشإ) لا يبدو أنها تستدعي بالتأكيد ردها إلى شيء واحد."[28]
ومراعاة لهذه الظروف، لجأ فرويد ـ منذ البداية مقتفيا آثار نظيريه: أبراهام وكلين ـ إلى النفاذ إلى حدود السوداوية من خلال حالة شبيهة بها، هي الحداد، فاتخذ المقارنة بينهما سبيلاً إلى فهم الظاهرتين، ووجد أنهما تنتجان عن التأثيرات الخارجية نفسها، " فالحداد هو عادة رد الفعل إزاء فقد شخص محبوب، أو إزاء فقد شيء مجرد ما حل محل الشخص، مثل الوطن أو الحرية أو مَثَل أعلى، وهكذا."[29]
وفي هذا التعريف النوعي، يتسع معنى الحداد، ويتمدد مفهومه من الاقتصار على الموت الطبيعي للكائن الحي إلى استيعاب أشكال أخرى من الفقد، تتعلق بالأشياء، والقيم المثالية.[30]
والتعريف السابق للحداد ينطبق على السوداوية، إلا أنهما يتمايزان في الناتج النهائي لكل منهما، فالحداد يُسلم إلى حزن سويٍّ مؤقّتٍ، ولا يلبث المحزون أن يتغلب عليه، ويفك حصاره عن نفسه؛ أما في السوداوية فإن المحصلة تكون حزنا مرضيا، لا ينجح المريض في التملص منه، ويصاحبه عملية نكوص(Regression) من اختيار الموضوع النرجسي ـ وهو الشخص أو الشيء المفقود ـ إلى النرجسية (Narcissisme)، ويخيم التناقض الوجداني على الحزن الذي يغذيه الانفعال بالموضوع المفقود، والانكباب على الذات باللوم، والعتاب، و الانتقاص.[31]

ويحسب لفرويد أنه استطاع بعناية فائقة حصر الخصائص العقلية، والنفسية، والسلوكية للسوداوية، فأجملها في السمات الآتية[32]:

1. غمٌّ يرافقه ألم شديد، إذ لاحظ فرويد أن طابع الحزن أثناء الحداد مؤلم، غير أن ألمه يبقى غامضا، لا يقبل القياس وفق قواعد اقتصادية، وقد عزاه فرويد لاحقا في مقالة أخرى إلى صيرورة انفصال الليبيدو (Libido) عن الموضوع المفقود، وانقطاع روابطه به (ذكريات ـ آمال...) وثمة أفكار، بثها فرويد شذرات في دراساته، تشير إلى أن الأشياء التي يكون فقدنا إياها مؤلما، هي أشياء نرجسية،[33] وبضياعها نفقد أجزاء من ذواتنا، أو نوشك أن نفقدها في الحداد، والألم يتجلى لنا تعبيرا عن جرح نرجسي، تتركه فينا الأشياء المفقودة، فنحن عرضة للخطر، والموت قد يسحبنا أيضا من خلال أجزاء من ذواتنا، ارتبطت ارتباطا حميما بأشياء، وأغراض تم فقدانها.
2. انصراف عام عن العالم الخارجي، تترجمه عمليات الكفِّ، والتثبيط (Inhibition) النفسية التي تشل أنشطة المحزون في محيطه الاجتماعي، فتراه معرضا عن كل ما يقع في الخارج، يكبح معظم الأنشطة، ويصادرها، ولا يرى جدوى في القيام بها، مسوغه النفسي في ذلك أنها لا ترد إليه مفقوده الغالي، ومن ثمة فإن استغراق طاقاته النفسية، والجسمية في الحزن، يبقيه عاجزا عن اتخاذ موضوع جديد للحب، ينقل إليه اهتمامه، وولعه، ويوجه إليه طاقة الليبيدو.

وفي عُرف فرويد، فإن فقد الحزين اهتمامه بالعالم الخارجي لفترة محدودة، بما يكتنفه من ركود في الأنشطة الحيوية، وعزوف عن القيام بها، وما يعوزه من قدرة على الانتقال إلى حب جديد، ينعشه ويخلصه؛ لا يعد سلوكا مرضيا، وعلى الرغم من غياب تفسيرات لذلك، فإنه يعبر عند فرويد عن حشد الطاقات الحيوية كلها، وتكريسها للحزن.

3. سوء تقدير السوداوي لذاته، إذ يبدو متحاملا ناقما على نفسه، يكثر من العتاب، و اللوم عليها، ويبالغ في تخطئتها، وتجريمها، متوقعا لها العقاب في عصاب هذياني، تتكامل به الحالة.[34]

وهذا الإحساس بالذنب، سواء أكان شعوريا أم لا شعوريا، يحضر في العمل الخاص بأي حداد مترتب عن فقد شيء ما، ولا يهم إن كان الجرم حقيقيا، وموضوعيا، انفرج عنه خطأ بشري، يدينه الرأي العام، والقانون، بقدر ما يُعنى التحليل بتأنيب الضمير، وشعور شخص ما بأنه مذنب، ومسؤول عن خطأ واقعي، أو وهمي بطريقة واعية، أو غير واعية بعيدا عن الاعتبارات المادية، والتطبيقية، والتاريخية، مما يعني التركيز على الذاتية، والنظر إلى الحقيقة على أنها لا تُقيَّمُ إلا بالتأثيرات النفسية الباطنية التي تطلقها.[35]

ويذهب فرويد إلى أن سمة " سوء تقدير الذات " ترصد كأهم فارق، يُميّز السوداوية من الحداد، فالخصائص الأخرى جميعها مشتركة بينهما، " والاستثناء الوحيد هو أن هبوط تقدير الذات ينعدم في الحزن ـ وفيما عدا ذلك فإن السمات هي ذاتها. "[36]

وعلى الرغم من اقتصار فرويد على التصريح بهذه السمة الجوهرية: " سوء تقدير الذات "، هي الفاصل بين السوداوية والحداد، فإنه يذكر في تنظيراته، وتحليلاته سببين آخرين ـ على الأقل ـ يدعمان الاختلاف بين الحالتين، ويعمقانه، ويمكن إيجازهما في العبارتين الآتيتين :

أ ـ الطابع الصحي للحداد، وظرفه المحدود، إذ سرعان ما يتم تجاوزه ـ حتى وإن طالت مدته ـ ويسترجع من فقد حبيبا، أو شيئا أثيرا إلى نفسه، حياته الطبيعية مستأنفا نشاطاته الاجتماعية، ومنغمسا فيها.

وقبالة هذا الوضع الصحي العابر، على ما فيه من حزن وألم، يتّضح البُعد المرضي للسوداوية، وينكشف انحرافها عن السواء في ديمومتها النسبية، ومدى المعاناة فيها عند ما تنحبس الذات في دوامة متواصلة من الحزن، والوجع، وتنقطع أواصرها بالحياة الخارجية، فتظل رهينة وضعها؛ ما لم تجد علاجا ناجعا، يفك عقد أزمتها.

ب ـ يتطابق الحداد، والسوداوية في انطلاق كلٍّ منهما من حالة فقدٍ، وهذا يستدعي بطبيعة الحال تكبد خسارة نوعية (موت محبوب، ضياع شيء، أو قيمة مثالية)، وإلى هذا الحد تتوقف المماثلة بينهما، إذ يختلفان في الحالة الإرادية لعملية الفقد التي حدثت، وقد لاحظ فرويد أنه بينما يكون الحزين في الحداد على وعي تام بالموضوع المفقود، يتسلل الالتباس إلى وعي السوداوي، فلا يستطيع أن يتبين بوضوح

موضوع فقده، ولا طبيعته، وفي أحسن أحواله، إذا كان على دراية واعية به، فإنه لا يهتدي إلى تعيين ما خسره من الموضوع بالضبط، ويعجز عن تلمس موضع الخسارة فيه، " وقد يوحي هذا بأن السوداوية ترتبط على نحو ما بفقدٍ لا شعوريٍّ لموضوع حب على النقيض من الحداد، الذي لا يوجد فيه شيء لا شعوري فيما يتعلق بالخسارة. " [37]

ويضرب فرويد مثالا للفقد اللاشعوري، يقدمه في حالة عروس هُجِرت، مما قد يعرضها للحزن السوداوي، فهي تعاني من فقدان زوجها، لكنها لا تدري بشكل جلي ما خسرته فيه بإعراضه عنها.

وعلى مما يوحي به مصطلح السوداوية من إيحاءات مرضية، تزج به مبدئيا في حقول العلوم، والمعارف، المهتمة بالصحة الجسمية، والسلامة العقلية، والنفسية، حيث توصف السوداوية بأنها خطيرة، وبمقدورها أن تجر الحزين إلى سلوكات يائسة من قبيل الانتحار، الذي قد يسبق في حالات معينة بجريمة قتل أفراد من العائلة ـ الأطفال مثلا ـ بمسوغ تخليصهم من حياة مؤلمة.[38]

وهذا الخطر المحدق، يمكنه أن يمتد على فترة حضانة للسوداوية، تنحصر بين أربعة أشهر، وثمانيةٍ.[39]

ومع ذلك كله، فإن انحراف السوداوية، وخروجها عن السواء الطبيعي، والحد المألوف من الحزن، والحداد، فإن هذين الحدين المتطرفين لا يجزمان بسلبية كل ما فيها، وبخاصة في أوضاع لها، تؤثر على التميز والفرادة، وتحمل في أعطافها، ومكامنها بذور الإبداع، والفن، وهو ما لاحظه أرسطو ـ منذ زمن مبكر ـ ، فاتجه إلى عقد القران بين التفوق، والسوداوية، وإقرار التلازم بينهما في كثير من نشاطات الحياة الاجتماعية، وميادينها، فالسوداوية ـ في نهاية المطاف ـ عصاب عارض، يتطلب استعدادات قبلية على الصعيد النفسي، وربما الوراثي أيضا، " وهو اضطراب طفيف، وقابل للاستمرار في أحضان المجتمع، مع أنه يكون خطيرا أحيانا، ولكنه لا يفقد صلته بالواقع."[40]

وكيف لا يرحب بهذه القابلية للاستمرار، وهي تدر على المجتمع مزيد من النوابغ، والأعلام، والمتفوقين، ومن بمقدوره القيام بالأعمال الجليلة في العلوم، والسياسة، والفنون، وقد أصبحت الفكرة القائلة بأن المبدعين ينطوون على مزاج سوداوي من الآراء الرائجة المشهورة (Doxa)، والمواضع المشتركة (Lieux communs).[41]

أعيد استنساخ هذه الفكرة الأرسطية في عصر النهضة الأوروبية، غير أن السوداوية لم تتحول إلى موضوع أدبي أثيرٍ في فرنسا إلا ابتداء من القرن الخامس عشر، حيث تأتّى لها تأسيس ذلك على يد الأديب "شارل دورليانز" (Charles d'Orléans)، فهو الذي تكفل بإعطائها شكلا غنائيا في العديد من أشعاره (Ballades)، وفي بدايات القرن التاسع عشر، اتخذها الشعراء موضوعا رئيسا، حتى إن الأطباء ممن ركزوا جهودهم في دراسة " أمراض رجال الأدب" قد رأوا فيها إشكالية كبرى خلال القرنين السابع عشر، والثامن عشر.

بظهور الرومانسية ـ بعد ركودها خلال عصر الأنوار ـ عادت السوداوية؛ لتهيمن على الساحة الأدبية، وانطبعت بها أعمال شاتبريان (Chateaubriand)، وموسي (Musset)، لترتمي في أحضان الرمزية، تتميز بها أعمال بودلير (Baudelaire) و لافورغ (Laforgue)، كما ظهرت في أعمال روائية لـ بروست (Proust)، و ديسنوس (Desnos).[42]

و في القرن العشرين، ظهرت الكتابات الطليعية، والروائية الجديدة، وظهرت معها السوداوية في صور متنوعة، وطبعات جديدة، ومبتكرة، تتلاءم، وطبيعة الحياة المعاصرة، وما يشيع فيها من تعقيدات، وصراعات نفسية، واجتماعية، تعبر عن الواقع المضطرب، والفرد البائس الغارق في أزماته، وفراغه الروحي الرهيب، ومن ذلك كتابات جويس، و بيكيت الذي حظي بتحليلات فرويد لأعماله، وخصصت له كريستيفا قراءات مركزة، وخلصت إلى أن رواياته " تثير المسائل الأساسية للانعتاق في وجه الفقدان والهجران والخوف. وعندما كان التصور المسيحي يستخدم في عمل بيكيت، وهو كذلك باستمرار، فإن تأثيره يكون تقريبا بين الكآبة والتجديف." [43]

وللوصول إلى مرادها من التحليل، استغلت كريستيفا فرضيات فرويد، وتصوراته حول الحداد، والاستثمار النرجسي للموضوع المفقود في دراسة التوظيف النفسي للغة، فالحزن يسكن كل الكائنات الناطقة ـ حسب كريستيفا ـ وبإمكان الصدمات التي يخلفها الفقد أن تترجم إلى تعويضات إبداعية، تتخذ

لبوسا رمزيا، ومن ذلك تحول الصدمة إلى رمزية لغوية ـ أدبية ـ عبر صيرورة، يطلق عليها فرويد تسمية التسامي ـ أو التصعيد ـ (Sublimation)، الذي تعدّه ميلاني كلين (M .Klein) ملاذ الذات، وآليتها الفعالة في الالتفات إلى ضروب الفن، والإبداع، فالرمزية في عرف " كلين" كفيلة بجعل الأشياء، والأنشطة، والاهتمامات موضوعا للفنتازيا الليبيدية؛ لأنها " أساس كل تصعيد، وكل مقدرة ".(44)

إن التّسامي، كما رآه غوته (Goethe)، وتبناه فرويد محاولا الزيادة عليه، يتجه إلى كونه عملية تحويل للواقعي من الأحداث، والمشاعر الذاتية، إلى الإبداع الشعري، وهذه الصيرورة تقتضي عند فرويد توفر المظاهر الآتية:

أ ـ فكرة وجود عملية لا تنص على الزيادة في الشدة فقط، بل تتعدى ذلك إلى أحداث تغيير نوعي عميق.

ب ـ وجود مكان للعمل السلبي في حال ظهوره؛ لاعتراض الحركة الآنية للدافع (Pulsion) من أجل إرغامه على الانعطاف القسري.

ج ـ الموضوع الرومانسي متمثلا في تجاوز الذات نفسها، وهو موضوع أثاره من قبل هيجل (Hegel) واستلهم منه فرويد فكرته منتهيا إلى تحديد التسامي، وحصره داخل المفاوضة النوعية للنرجسية. (45)

وسواء أكان التسامي ميكانيزما دفاعيا، أم لا، دالا على حالة سواء، أم عصاب، فإنه في مفهوم أليفٍ عند أصحاب التحليل النفسي، تروج له آنا فرويد (Anna Freud) بوصفه انتقالا إلى مستوى أكثر ارتفاعا، يبلغه هدف الدافع من وجهة نظر اجتماعية، حيث يفترض أن تكون عملية الانتقال مقبولة، أو تتطلب على الأقل معرفة بالقيم الأخلاقية.(46)

إن الشيء المؤثر في علاقة السوداوية بالتسامي، هو عمل هذا الأخير على إيقاف عمليات الكف، والتثبيط عند السوداوي، إذ يساعده على التصدي لأعراض السوداوية باسترجاع نشاطاته الاجتماعية المعهودة، ويعلل الأمر بامتلاك التسامي ـ على النقيض من عمل الكف (Inhibition)، والاستحواذ (Obsession) المتولدين من العصاب ـ خصيصة أخذ المحظور، أو الخطر في الحسبان، حيث يراعي وجوده، لكنه يقوم بتجاوزه معطيا الانطباع بتجاهله.

تشمل امتدادات التسامي ميادين الفن، والإبداع، مثلما تغطي مجالات الحياة الاجتماعية الأخرى، كما تكون نتائجها متناقضة، موزعة بين الإيجابي: (اقتناء أشياء خاصة، وجمعها (Collectionnisme)، تكريس الحياة في ممارسة الرياضة...)، والسلبي الذي يجعل من التنازل لصالح فكرة مجردة تصعيدا خطيرا، تظهر نتائجه الوخيمة على الفرد، والمجتمع معا: (حالة التطرف بكل أشكاله، الإرهاب الذي يفقد فيه منفذو هجماته أنفسهم غالبا إلى جانب من أسقطوهم في الهجومات الانتحارية...) ، وفي هذه الحالات ـ حسب فرويد ـ فإن الموضوع ـ الفكرة المجردة ـ يحتل مكان الأنا المثالي، ويتخذ موضعه.(47)

إن عمل التسامي، وصيرورته يتطلبان ـ لكي يتحقق التسامي وتدوم فعاليته ـ جهدا لا يمكن وصفه بالطبيعي، ولا بالآلي، فهو جهد مرصود، ينشد من ورائه السماح للأنا بتلبية جزئية لشروط أناه المثالي، ومتطلباته النوعية، كما أن صيرورة التسامي ترتبط باستثمار زمن مستقبلي، وصرف الجهد فيه؛ حتى يتسنى تحقيقها، وقد أطلقت "صوفي دو ميولا" على هذا الاستغراق الزمني تسمية " زمن التسامي ".

ولأن التسامي يتطلب وساطة " الأنا " في حدوثه، فالملاحظ أن عمل التسامي يبدو قريبا من عمل الحداد، والسوداوية الذي عبر عنه فرويد باستعارته المشهورة: " انتصاب الشيء المفقود داخل الأنا "، حيث فسر الحزن المؤلم في السوداوية انطلاقا من حضور الشيء الضائع في الأنا (48)، وقد عبر فرويد عن هذا التماهي/ التقمص (Identification) بين الأنا، والموضوع، وأثار فكرته في مقاله "الحداد والسوداوية"، وقبله في كتابه " الطوطم والمحظور" (Totem et tabou)، معبرا عنه بقوله : " وهكذا سقط ظل الموضوع على الأنا؛ حتى أمكن بالتالي نقد الأنا ـ بواسطة ملكة عقلية خاصة ـ وتحول الصراع بين الأنا والشخص المحبوب إلى انشقاق بين ملكة الفقد في الأنا والأنا كما بدله التقمص."(49)

وقد استوحى فرويد تعبير " سقوط ظل الموضوع على الأنا " من اعتقادات الشعوب البدائية التي تؤمن بأن روح الميت تستمر في الحوم، والتحليق كالطيف في أجواء المكان.(50)

إن فكرة الانتصاب (Erection) في نظرية فرويد، على ما فيها من إيحاءات جنسية، تدل بشكل مناسب على تقويم الشيء، أو الموضوع، وتعديل وضعه على الأنا، مما يقود إلى إعادة رفعه، وتشكيله من

جديد، وهذا الطرح يتلاءم مع التصور القائل بأنه انطلاقا من الاستثمارات النرجسية الأولية، يجري تخصيص قسم من الليبيدو للشيء، أو الموضوع من أجل بنائه أول مرة، وبعدها تتكرر العملية، ليس لإعادة توزيع الاستثمارات الليبيدية على المواضيع فحسب، بل لإعادة تشكيل التوازن الداخلي للأنا ذاته، الأمر الذي يجعل من هذه العملية ـ بالنسبة إلى فرويد ـ قاعدة للتجديد في نظرية التسامي.[51]

وهكذا تبرز أهمية التسامي، وتتعاظم قيمته في الحياة الاجتماعية عموما من خلال الانعطاف بها بعيدا عن ذائقة الأعصبة، والعقد النفسية، وبخصوص السوداوي، فالتسامي يفتح له أفقا للتعايش مع حزنه وفقده اللاشعوري، ويمنحه فرصة ثمينة؛ لنقل طاقاته الليبيدية النرجسية إلى غايات أكثر فائدة، ونفعا، يتفادى بها مخاطر الهذيان، والجنون، والانتحار...

وإذا انحصر الأمر أكثر في أصحاب الإبداع الأدبي، كان التسامي خير معين لهم، حيث يعمل الخطاب الأدبي برمزيته على نفي الفقدان، وإجلاء الكآبة، والحزن، فالمواضيع المفقودة بإمكان الكاتب أن يعثر عليها في الإشارات، والرموز، وقبوله بفقدها سبيله إلى نفي ضياعها، واستردادها مرة أخرى في اللغة، ودلالاتها.[52]

وفي مجال الأدب دائما، وعلى الرغم من الصلات العتيقة التي تربطه بالسوداوية من عهد أرسطو، إلا أن مصطلح هذه الأخيرة لا يحضر إلا نادرا في المعاجم الخاصة بالأدب، والمدونات الاصطلاحية لأجناسه، الغربية منها، والعربية في ذلك سواء.

ويلاحظ القارئ أن معاجم متخصصة صنفها أعلام غربيون من قبيل: قاموس السرديات لـ جيرالد برنس (Gerald Prince: 1987)، ومعجم الرواية لـ إيف ستالوني (Yves Stalloni : 2006)، ومعجم تحليل الخطاب لـ باتريك شارودو و دومينيك منغنو (Patrick Charaudeau, Dominique Maingueneau: 2002)، وغيرها، لا تذكر مصطلح السوداوية، ولا تدرجه في مصنفاتها الاصطلاحية.

وفي الجانب الآخر، تقف معاجم عربية متخصصة، تشاكل نظيرتها الغربية، وتتباين مادتها الاصطلاحية في الكمية، والنوعية، وهي تتواطؤ جميعا على إهمال السوداوية، وإسقاط حدها، ومفهومها من المتون على تواتر طبعاتها، وما قد يعتريها من إثراءات، وإضافات، ولا شك أن العودة إلى:

- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب لـ مجدي وهبه وكامل المهندس 1974 ـ 84 م.
- المعجم الأدبي لـ جبور عبد النور ـ 1979 ـ 84 م ...
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة لـ سعيد علوش ـ 1985 م..
- معجم المصطلحات الأدبية لـ إبراهيم فتحي ـ 1986 م...
- المعجم المفصل في اللغة والأدب لـ إميل بديع يعقوب وميشال عاصي ـ 1987م
- المصطلحات الأدبية الحديثة لـ محمد عناني ـ 1996 م...
- دليل الناقد الأدبي لـ ميجان الرويلي وسعد البازعي ـ ط 2 ـ 2000 م...
- معجم مصطلحات نقد الرواية ـ لـ لطيف زيتوني ـ 2002 م
- معجم السرديات تأليف نخبة من الباحثين التونسيين بإشراف محمد القاضي ـ 2010 م

هي عودة مخيبة لآفاق التوقع بالنسبة لمن ينشد العثور على مصطلح السوداوية، ويستقصي مفهومه، مما يقود إلى الاعتقاد بأن هذا الإقصاء الذي يحاصر المصطلح، ويؤدي إلى تغييبه، وحجبه عن الأنظار، والأذهان، إنما يجد بعض التبريرات، والأعذار في سيادة التوهم عند المصنفين، وربما النقاد أيضا، بانضمام المصطلح إلى حقول معرفية مجاورة، يتصدرها الفلسفة، وعلم النفس، والتحليل النفسي، وقد يضاف إليها علم الاجتماع الذي يضم بعض معاجمه تعريفا موجزا، يلخص بدقة أهم ملاحظات فرويد عن أعراض السوداوية: " إحدى صور المرض العقلي، تبدو فيها على الشخص مشاعر الاكتئاب والانطواء والقلق، ونقص النشاط الحركي، وعدم الاهتمام بالعالم الخارجي والرغبة في الانتحار والنظرة السوداوية "[53].

وقد يكون للإيحاءات المرضية التي علقت بالمصطلح ـ انطلاقا من الآراء الشائعة والمواضيع المشتركة ـ آثار واضحة في انحساره أدبيا، وانصراف الدارسين إلى حصره في نطاق الاهتمامات الصحية،

والنفسية، وبقائه عالقا في مدار المفاهيم النابعة من الطب، والتحليل النفسي، وعلم النفس، لا يفلح في تحرير مفهومه، واستخلاص هويته الأدبية.

من المعاجم الغربية التي تبنت مصطلح السوداوية، ومنحته جنسية أدبية، ومشروعية العبور إلى عالم الأدب؛ ليحقق أوبته إلى قضايا الأجناس الأدبية، ومواضيعها، يأتي المعجم المتخصص" معجم الأدبي " (Le Dictionnaire du Littéraire) الذي أصّل لفظ السوداوية، واستقصى تاريخه في الأدب الفرنسي مصدرا ذلك بتقرير مفهومه الذي ينصرف إلى " تعيين استعداد النفس، وقابليتها للخضوع إلى الكآبة كمحصلة للإفراط في إفراز السوداء (Bile noire)، وبمعنى أوسع يشير المصطلح إلى حالة من الحزن، لا يعرف لها سبب مباشر، تشكل أكبر حافز أدبي، وقد جرى ربط السوداوية بالوحي، والإلهام.[54]

ومما يحسب لهذا التعريف أنه لا يركز على البعد المرضي للسوداوية، ويهذب التعبير عنها بتحاشي إثارة مواضيع خطيرة كالانتحار، والجنون، والعصاب، ليست من اهتمامات الأدب المباشرة؛ لأنه ـ وإن كان يتحدث عنها في ثنايا دراساته ـ لا يتعقبها بشكل مباشر، ولا يتصدى لعلاجها كما يفعل الطب، والعلوم القائمة على السلامة الجسدية، والعقلية، والنفسية، التي تجعل من المواضيع السابقة محور أعمالها.

ومن الأفكار التي يثيرها التعريف أيضا، دلالته على الاستعداد للحزن، وربط ذلك بالمعتقد الطبي القديم القائل بفرط المزاج السوداوي.

كما يستلهم التعريف من بعض فرضيات فرويد فكرته حول الفقد اللاشعوري لموضوع حميم، يتسبب ضياعه في حالة حزن، لا يستوعبها السوداوي، ولا يعي سببها المباشر، وإن كان يعرفه في الظاهر، والأهم من ذلك كله أن تتحول السوداوية ـ على ما يشوبها من ظواهر سلبية ـ إلى دافع مولد للإبداع الأدبي، وهذه الفكرة مأخوذة أيضا من نظرية كريستيفا ذات الأساس الفرويدي، التي تتحدث عن قدرة الذات الحزينة على نفي الفقد، واسترجاع الموضوع المفقود في الخطابات، والكتابات الأدبية، وما توفره من طاقات ترميزية، ودلالية، حيث تتجسد هذه النقلة التحويلية ـ من حالة حزن، و فقد إلى حالة تجاوز، وإبداع ـ عبر آلية نفسية، قوامها التسامي الذي يتجلى بدوره نظرية أخرى، قام فرويد بتجديدها، غير أن صلاتها العتيقة بمتلازمة أرسطو ـ كل متميز في العلم، والفن، والسياسة يكون سوداوي الطابع بالضرورة ـ لا يمكن إخفاؤها، أو نكرانها.

وبالنسبة للمعاجم العربية، يكاد ينفرد " المعجم المفصل في الأدب " لمحمد التونجي ـ بحسب ما استقصي من مراجع ـ بإثبات المصطلح، وتقديمه للقارئ العربي، وهو يعرف السوداوية بأنها " نظرة سوداء تشاؤمية إلى الحياة تؤدي إلى اضطراب في النفس وذهول في الأحكام. وإذا برزت في الكتابة دلت على الكآبة والقلق والتشاؤم، وهذا مما يدعى بداء العصر."[55]

ولأول وهلة يُحتك فيها بالمفهوم، يظهر اختلافه النسبي عن مفهوم سابق، قدمه "معجم الأدبي" الغربي، وتتحدد العبارة الأولى " نظرة سوداء... وذهول في الأحكام " عائقا أمام وضوح المفهوم، واستقلال مدلوله، وتكمن الإشكالية في قيام بعض العلامات " نظرة " بتوجيهه إلى التداخل مع وجهة النظر (Point de vue)، حيث يتبادر إلى الذهن أن السوداوية ضرب من الرؤية، والتوجه في الفكر والرأي، اتخذ منحى متطرفا بفعل عوامل مختلفة، وانتهى به الأمر إلى اليأس والقنوط، مما أثر على التوازن النفسي، وأحكام الذات على الواقع من حولها، وبعبارة أخرى، لا يجوز الخلط بين السوداوية، ووجهة النظر كمفهوم خاص في السرديات، له طرائقه، ومظاهره الفنية، حتى ولو تضمنت السوداوية التعبير عن المواقف، والأفكار، فإنها لا تختزل فيها؛ لتصور على أنها منظار نفسي خاص، يتخذ زاوية، ومسافة للتطلع إلى فقر العالم، واختلال المعايير، والأشياء فيه، فالسوداوية قبل كل شيء حالة نفسية وجودية، والفقر يعود فيها إلى الذات بالدرجة الأولى قبل انعكاسه الظاهري على العالم الخارجي، ومرجع هذا الإفقار في الأنا يتجه إلى شكل من أشكال الفقد، لم يفلح صاحبه في تجاوزه، أو تحويل ارتباطاته النرجسية به إلى غيره من المواضيع.

وفي الشق الثاني من التعريف " وإذا برزت في الكتابة ... يدعى بداء العصر " تتأسس العودة إلى تلمس الجوهر الأدبي للسوداوية، وتنعقد الصلة التاريخية بينها، وبين الفن، حيث تغدو حالات كثيرة من الكتابات الفنية ترجمة للمظاهر السوداوية من حزن، وتشاؤم، وكآبة...

وبسبب من ضيق حاصل في مفهوم السوداوية الأدبي بصفة خاصة ، وذلك بالنظر إلى رواسب فكرية، لابسته طويلا، وافدة عليه من مرجعياته الأولى (الطب، والفلسفة، ومن بعدهما التحليل النفسي)، حيث انحصرت السوداوية في الحياة الواقعية المعيشة، وتعلقت بوجود شخص حقيقي من لحم، ودم، يتأرجح مصيره بين الصحة، والمرض، ويتوسل بالعلاج إلى الحفاظ على سلامته الجسدية، والنفسية؛ لذلك فثمة حاجة ملحة، تضغط لصالح توسيع المفهوم، ومطه ليستوعب الوجود الواقعي، والتخييلي معا، إذ الوجود الواقعي في الأدب يستطيع أن يغطي شخص الشاعر بالنسبة للشعر، وشخص الكاتب الواقعي المتلبس بالشخصية في أنواع سردية، تعول على السيرة، أو التاريخ، أو الرحلة، بينما تتكاثر هناك أجناس سردية أخرى ـ منها الرواية، والقصة القصيرة ـ يغلب عليها الطابع التخييلي، وتتطلب شخصية تخييلية صرفة، وهنا مكمن الحاجة إلى التوسيع في مفهوم السوداوية المتقيد عادة بالشخص الواقعي، والتحليل الطبي السريري.

وينبني حجاج هذا التوسيع على الوشائج المضمرة بين الواقع، والتخييل، فما الأخير سوى عالَمٍ موازٍ للأول، ينتصب فرعا له، ولا يفصله عن أصله إلا حاجز رفيع من الاحتمال، والافتراض، وهو ما حدا ببعض النقاد ـ إرنست جونز ـ إلى رفض الفكرة القائلة بأن الشخصية الأدبية ليس لها وجود سابق قبل بداية النص الذي يقدمها، ويمنحها حاضرها، فلا يعقل أن يكون الحاضر مبتورا عن ماض سابق، مهد له، وأفرز أسباب ظهوره، وتجلياته.

وما دامت الحقيقة مطلقة، يبقى الواقع والتخييل متّسمين بالنسبية، ومن ذلك " فعملية تحليل الشخصيات النصية بدلا من الشخصيات الإنسانية ذات الحياة الواقعية، لا بد أن تكون دائما جزئية وتأملية."[56]

وعلى ذلك، فالعملية برمتها مآلها الاجتزاء، وعدم ادعاء التّطابق بين الشخصيات الواقعية، والتخييلية، وهذا بحد ذاته شيء طبيعي قياسا على علاقة الإيهام بالواقعية بين الفن، والحياة، فهي وسيلة النص في اجتذاب القارئ، وإغرائه، وتوجيه استجابته إلى حد مناسب، يضمن فيه النص إعادة قول ما يحمله أثناء التبادل بينه، وبين القارئ.

وإذا كان القارئ يقبل حديث النص عن شخصيات تأكل، وتشرب، وتحب، وتكره ، وتنشط في مجالها الاجتماعي، وتقوم بكل ما يمكن أن يفعله شخص واقعي، فما المانع من إيمانه بإمكانية اعتلالها، وسقمها، وقبوله فكرة إصابتها بالعقد النفسية، والأعصبة كالسوداوية مثلا.

إن الرواية والقصة القصيرة بفروعهما ـ وسائر الأعمال السردية عموما ـ يبدوان أكثر ميلا إلى توظيف المحاكاة (Mimésis) من قريب، أو بعيد (بسيطة، أو تستلهم الجوهر، أو المثالية)؛ لاستثارة الواقعية الروائية عند القارئ (Réalisme romanesque)، فهذه الأخيرة من شأنها أن " تبرمج الطريقة التي نتصور بها وجودنا، وهي المخطط الكفيل بتحديد إمكانية أفكارنا، وحركاتنا، وعواطفنا الأكثر حميمية، أو الأشد خصوصية، وبتعبير آخر، فالروايات هي التي تعلمنا ما يمكن أن تكون عليه الواقعية، هي ما يصوغ شكل القابل للتصديق (Vraisemblable) في أعيننا، وهي ما يحدد الأدوار الخاصة بقوالب جاهزة (Stéréotypique)، نستطيع أن نلعبها معتقدين أننا نعيشها ."[57]

وبموجب تأثيرات واستجابات خاصة، يولدها القابل للتصديق في ذهن القارئ، بإمكان كثير من الظواهر، والحالات الإنسانية الواقعية أن تعبر إلى وعيه حاملة إليه بعض المعارف، والخبرات المنقولة، وموفرة عليه ـ أحيانا ـ تجربتها بشكل شخصي، والأمر نفسه قد يصدق بالنسبة للسوداوية في عالم روائي تخييلي، عندما يتلقاها القارئ حالة ضمن مجموعة أحداث، ووقائع، يعيشها بعض الشخصيات، ويكشف السرد بتقنياته عن مظاهرها، وتطوراتها، فيساعد القارئ على تكوين صورة عنها، وتعقب طبيعتها، وأسبابها، وتأثيراتها في علاقة الشخصية بغيرها، ليمتد الأثر إلى الآراء، ووجهات النظر، ويتكامل مشهد السوداوية مستجمعا أركان قابليته للتصديق من طرائق السرد، وآلياته التي تمنحها أبعادا فنية، تتيح ـ أخيرا ـ للسوداوية أن تؤسس علاقة الملفوظ بالواقع من خلال الجمع بين السمة الأدبية، والإيهام

بالواقعية، فـ " في الأدب يساهم القابل للتصديق في إنتاج أثر للواقع."[58] يجذب القارئ، ويغريه بالاهتمام، والمتابعة، وقبول العوالم الممكنة التي يعرضها الراوي.

الهوامش:

1-إله الطب عند اليونان، وهو ابن أبولو من زوجه كوردني، تكفل بنشأته القنطور خيرون، وعلى يديه غدا طبيبا عبقريا بمقدوره إحياء الموتى، أهلكه زيوس بالصاعقة؛ لأنه خشي منه على فراغ العالم السفلي من الموتى، فتحول اسكلبيوس إلى رب للطب، وصارت الثعبان رمزه المقدس.

انظر/ ماكس شابيرو ـ رودا هندريكس: معجم الأساطير، ترجمة حنا عبود، دار علاء الدين، دمشق، ط 3، 2008، ص 46.

2- داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة داود الأنطاكي، مراجعة مصطفى محمد، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط 1، 2005، ص 13.

3-Jacqueline Picoche: Dictionnaire étymologique du français, Le Robert, Paris, 2009, p 334.

4-Paul Aron et Autres : Le Dictionnaire du littéraire, Quadrige/PUF, 2Ed, Paris, 2010, p 476.

5- داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة داود الأنطاكي، ص 16.

6- نفسه: ص 15.

7- نفسه: ص 15 - 16.

8- نفسه: ص 14.

9- نفسه: ص 14 - 19.

10- فخر الدين الرازي: المباحث المشرقية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، المجلد الأول، 1990، ص 525- 526.

11- داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة داود الأنطاكي، ص 18 - 19

12- نفسه: ص 19.

13- فخر الدين الرازي: المباحث المشرقية ، ص 530.

14- نفسه: ص 531.

15- نفسه: ص 530 - 532.

16- داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة داود الأنطاكي، ص 20 - 21.

17- فخر الدين الرازي: المباحث المشرقية، ج 1، ص 533.

18- نفسه : ص 532 - 533.

19-Didier Julia : Dictionnaire De La Philosophie ; Ed Classique abrégés, Paris, 2007, p 73 _74.

20- التهانوي: موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 1996، ص 988 - 989.

21- Paul Aron et Autres: Le Dictionnaire du Littéraire, p 476.

22- Didier Julia: Dictionnaire De La Philosophie, p 190.

23- Norbert Sillamy: Dictionnaire de la psychologie, Larousse - VUEF , Paris, 2003, p 167.

24- كاترين كليمان: التحليل النفسي، ترجمة محمد سبيلا وحسن أحجيج، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ـ منشورات الزمن، الرباط، ط2، 2014، ص 80-81.

25- سيغموند فرويد : أفكار لأزمنة الحرب والموت، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط 3، 1986، ص 65.

26- انظر المرجع نفسه: ص 63 - 65.

27- رث باركن غونيلاس: الأدب والتحليل النفسي، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006، ص 114.
28- سيغموند فرويد: أفكار لأزمنة الحرب والموت، ص 66.
29- نفسه: ص 67.
30- Michel Hanus: Le Travail De Deuil ; dans: Le Deuil, sous la direction de N. Amar, C. Couvreur, M. Hanus, Ed .SARP, 2002, P15.
31- سيغموند فرويد: أفكار لأزمنة الحرب والموت، ص 67 - 68 وكذا 76 - 77 .
32- نفسه: ص 67 - 68.
33- Jean Begoin : La Problématique Du Deuil Et Le Métabolisme De La Souffrance Psychique, dans: Le Deuil, p 40 _41.
34-Norbert Sillamy: Dictionnaire de la psychologie, p 167.
35- JEAN Cournut: Deuil Et Sentiment De Culpabilité, dans: Le Deuil, p 117 _ 118.
36- سيغموند فرويد: أفكار لأزمنة الحرب والموت، ص 68.
37- نفسه: ص 70.
38-Norbert Sillamy: Dictionnaire de la psychologie, p 167.
39-Didier Julia: Dictionnaire De La Philosophie, p 190.
40- كاترين كليمان: التحليل النفسي، ص 81.
41- Paul Aron et Autres: Le dictionnaire du littéraire, p 476.
42-Ibid. p 476 _ 477
43- رث باركن غونيلاس: الأدب والتحليل النفسي، ص 114.
44- نفسه : ص 115.
45-Sophie de Mijolla - Mellor : La Sublimation, Ed PUF / Ed Point Delta, Liban, 2013, p5.
46-Ibid. p 20.
47-Ibid. p 25 - 26
48- Ibid. p 91 - 92.
49- سيغموند فرويد: أفكار لأزمنة الحرب والموت ، ص 75 .
50-Sophie de Mijolla - Mellor: La sublimation, p 93.
51- Ibid. p 93 – 94.
52- رث باركن غونيلاس: الأدب والتحليل النفسي، ص 114 - 115.
53- مصلح الصالح: الشامل قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1999، ص 332.
54- Paul Aron et Autres : Le Dictionnaire du Littéraire, p 476.
55-محمد التونجي:المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، ج2، 1999، ص 532.
56- رث باركن غونيلاس: الأدب والتحليل النفسي، ص 8.
57- Philippe Forest : Le roman Le réal, Ed pleins feux, Paris, 1999, p 25.
58- باتريك شارودو ـ دومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، م. و. للترجمة، تونس، 2008، ص 585.